عبد الحق فاضل في مغامراته اللغوية

الأستاذ ذنون أيوب
(بغداد)

عبد الحق فاضل ، الموصلي بالولادة ، هو اكبر انجال الاستاذ فاضل الصيدلي ، شاعر الموصل الشهير في بلده بشعره الساس البليغ ؛ ذي المضمون الانتقادي اللاذع ؛ للشؤون الاجتماعية المتأخرة ، والاخلاق المتردية ، وله في الوطنية والسياسة في اوائل قرننا ؛ صولات وجولات . وقد تتلمذ على الصيدلي كثير من ادباء الموصل ، في اللغة والادب والشعر .

خدم عبد الحق في وزارة الخارجية ؛ بعد انتهاء دراسته في الحقوق ؛ رهيات له هذه الخدمة مجال التنقل بين البلاد العربية وايران وتركيا ، وغير ذلك من البلاد ؛ وكان آخر ما تبوأ من مناصب سفارة العراق في الصين .

لقد وهب عبد الحق ذكاء فطريا تجلى في ملكة الحفظ ؛ وسرعة الفهم ؛ والاحساس المرهف في ادراك المتشابه والمختلف ؛ عند المقارنة . وكان لطبيعته الانعزالية المتنسكة اثر كبير في كثرة قراءته ؛ وسعة اطلاعه وغزارة ثقافته ؛ في حقلي العلوم والآداب ؛ يبدو ذلك واضحا في جل آثاره وتآليفه .

درس عبد الحق الفارسية ؛ خلال خدمته في ايران واخرج كتابه الاشهر « ثورة الخيام » خالف فيه كل من كتب عن الخيام ؛ واتى بنظرية علمية تطورية جديدة في دراسة حياة هذا الشاعر الخمري الفلكي ؛ اثبت فيها مروره بأدوار متتابعة متسلسلة ؛ مما لا مجال للبحث فيه هنا ؛ وترجم رباعياته المشهورة نظما .

وكتب عبد الحق عدة اقاصيص وقصص ، لا تعد ذروة انتاجه على جودتها وحسن تبويبها . وله شعر بديع لا ادري لماذا لا يحب ان ينشره مع روعته في المبنى والمعنى . وقد علمت بأنه ينوي ترجمة ملحمة كلكامش شعرا ، وانه لابن بجدتها .

يمتاز عبد الحق فاضل بأسلوبه البليغ المبسط ، ذي المنطق الواضح الرصين . وهو حين يعرض على القاريء اعوص النظريات يقدمها له على مائدة مزوقة منسقة ، حافلة بالتوابل والمشهيات ، فيقبل عليها وهو مستأنس . وحججه القوية تشيع خلالها النكتة والامثلة الواضحة المقنعة ، فيستغرق القاريء في القراءة مسرورا حتى يجد نفسه مقتنعا ، واصلا الى ما يقوده اليه الكاتب من اهداف قد تكون بعيدة جدا عن المألوف ، دون جهد او عناء .

وكتابه « مغامرات لغوية » آخر انتاجه ، ويقع في 370 صفحة ؛ من منشورات دار العلم للملايين . وما اقدمه الآن من هذا الكتاب عرضا ونقدا لا يغني عن مطالعته ، اذ ما ذلك الا قطرات من جدول عذب رقراق .

تعرض المؤلف للكثير من الكلمات العريقة في القدم ؛ فأحالها الى اصل واحد . فقد اثبت ان الآرامية والعربية والعبرية كلمة واحدة ، فالباء والميم قريبتا المخرج . واتى بشواهد مقنعة تدل على ان العرب ومن جاورهم من الامم ، كثيرا ما يستبدلون العين الفا والباء ميما . « فلو سددت انفك وقلت ماما لخرجت من فيك بابا » . والاعاجم ينطقون كلمة عربي (اربي) حتى اليوم . فكلمتا عربي وارمي واحدة « كانتا رتقا ففتقهما تطور الحدثان » . واسم بكة ومكة وارد في القرآن . اما كلمتا العبرية والعربية فقد كان دليله على اصلهما الواحد أوضح

واجلى . واليك من براهينه : يقول العرب : عبر تعبيرا وعرب تعريبا ، قاصدين نفس المعنى ، اي الافصاح والابانة .

وقد ذهب الى ان اسم سوريا مشتق من كلمة (اسيريان Assyrian) كما سمى اليونان القدماء الآثوريين . ولا غرابة فقد كانت سوريا مما دخل فى نطاق الامبراطورية الآثورية امدا طويلا .

وفوجئت عندما قال عبد الحق : ان الفنيقيين انما هم (بني كنعان) اسما وقوما . فالرومان القدامى سموا القرطاجيين ، وهم فنيقيون اقاموا مستعمرة لهم فيما يسمى تونس الآن : بونيكوس . والتحريف متأت من نقل لفظة من لغة الى اخرى . والثابت أن ما يسمى كارتاكو عندهم (قرطاجة عندنا) هي نفس ما اطلقه الفنيقيون على مستعمرتهم الحديثة وهو (قريات حديشات) ، والبعد بين كلمتي (قريات حديشات) و (كارتاكو) اكثر من البعد بين كلمتي (بني كنعان) و (بونيكوس) ، وما هم الا الفنيقيون . هذا الاسم الذى اقتبسه العرب من اليونان والرومان مع التحريف المناسب ، دون أن يدركوا أن الكلمة اصلها عربي وما هي الا (بني كنعان) فرع من العرب القدامى سكن لبنان . وتوج براهينه هذه بما عثر عليه فى البرازيل ، وهو لوحة قديمة ، يرجع تاريخها الى عام 125 ق م ، مكونة من ثمانية اسطر اولها (هنا نحن بني كنعان من فريم حقرة حصل . اوش حر حصل هك) . وترجمته بعربيتنا وكتابتنا : « هنا نحن بني كنعان من فرايم حملنا الحقارة . اليس حراما أن نحصل هكذا ؟ »

لقد كان اجدادنا، واعمامنا ، بنو كنعان، مخترعو الحروف الابجدية وارقام الحساب ومراتبه، اول من جاب البحار ووضع فنون الملاحة. وقد حان ان يرجع الفضل الى ذويه بعد ان « حقره حصل » . اليس كذلك يا أخي عبد الحق ؟ ثم لماذا نستبعد ان يكون القرطاجيون قد هاجروا من بعض مستعمراتهم فى اسبانيا مثلا ، هربا من مطاردة الرومان التى لا رحمة فيها ، فركبوا البحر مخاطرين ، ووصل بعضهم الى الامريكتين ؟ لقد ذهب عبد الحق الى مثل هذا الراي محترزا ، ولو كتب كتابه الآن لاعلن رايه دون توجس ، وذلك لان (ثور هايردال Thor Heyerdal) الاثري النرويجي ، اثبت امكان سفر الاقدمين بين القارتين الافريقية والامريكية بقارب شراعي مصنوع من حزم البردى المقير ، عملا لا نظريا .

ومما لا جدال فيه ان موطن الامة العربية الاول هو الجزيرة العربية ، وان موجات هجرة وتنقل من هذه الجزيرة الى ما يجاورها، قد حدثت فى حقب التاريخ مرارا عديدة ؛ فكل الحضارات المجاورة للجزيرة العربية هي من اصل حضارتها . بل وان الاديان التى تعتنقها كل اوربا ومعظم آسيا وافريقيا نشأت فيها ؛ وعلى تخومها . لكن عبد الحق ذهب الى ما هو اكثر من ذلك ؛ فقد اكتشف بعد ان غاص فى اعماق القواميس، واجرى حفريات قاموسية. ان الكثير من الفاظ اللغة اليونانية واللاتينية والفارسية ، يرجع الى اصول عربية . وان الاصل العربي اقدمها جميعا . فمن المعلوم ان اول الكلام عند الانسان هو تقليد الصوت كما يسمع ؛ كالخرير من صوت الجدول ، والفرار من صوت اجنحة الطائر ، ومن الاخيرة تطورت كلمة فلاي وفلايت fly و flight ـ بالانكليزية .

والقلم هو (كلموس calamus) باللاتينية. وهي تقف وحدها فى اللاتينية . اما فى العربية فلها عشيرة كبيرة : قلم ، كلم ، جلم ، جلح جلف .. وكلها من معنى (قصب ، أي تقطع) ؛ والقلم يتخذ من القصب . وكلمة (سيما sema) اليونانية اصلها عربي وهو السمة والسيماء . و muthos واصلها العربي المثلة والمثلة ؛ وكلها تعني الخرافة . والهستوريا اللاتينية اصلها العربي الاسطورة . ومنها نشأت (استار) او عشتار . وهو يقترح هنا ان نسمي علم الفلك astronomy بالعشترة ؛ فيكون المعنى صحيحا لفظا واصلا ؛ وتكون بضاعتنا قد ردت الينا . واليك امثلة اخرى من اللاتينية مما ذكر المؤلف solid : صلد ، ululo : ولول ، capesso : قبض . وذكر من الانكليزية : that ذاك ، cut قط ، earth : ارض ، wine الوين (العنب الاسود بالعربية) .

واللغة العربية المتحضرة نفسها ترجع فى اغلبها الى اسماء تمت بالنسب الى حياة البداوة وما يلابسها وهي لا تتعدى الابل وقليلا من الدواب والاغنام والخيام وبعض الاسلحة التى لا تتجاوز الرمح والسيف والقوس . فالعقل وكل ما اشتق منه من عديد الكلمات وساميها ، من عقال الناقة . والكتابة من الكتاف وهو القيد ، والاثبات من ثبات الدابة ،

والشكل من الشكال وهو رباط الدابة ايضا ، ومثله الوثاق ، وكذلك العنوان من العنان ، والحنكة من حناك الفرس اي لجامها ، والحكمة على جلال قدرها وما اشتق منها هي من الحكمة وهو جزء من لجام الفرس الذى يحيط بالحنك . وكذا العقدة والسبب .. الى غير ذلك مما يصعب على المتضلع من اللغة ان يجاريه فيه .

وكل ما مر لا يعتبر الا مغامرات بسيطة ، حتى يدخل فى مغامرته الكبرى حين يذهب الى ان اللغة العربية هي ام اللغات السامية والهنداوربية وما يتفرع منها من الهندية والفارسية واللاتينية ، وان كل ما اشتق من الكلمات : من اصل عربي اي من جزيرة العرب التى كانت فى العصر الجليدي جنات عدن تجري من تحتها الانهار ، وعند انكشاف هذا الدور جفت فاستحالت الى صحراء وهجرها سكانها فى حقب ما قبل التاريخ ، وانتشروا فى الارض شرقا وغربا وشمالا . وهنا تصبح المغامرة خطيرة جدا .

ان علماء اصول الانسان لا يعلمون بالضبط اين نشأ جد الانسان الاول ، ولكن احدث ما عثروا عليه واقدمه عمرا من آثار هذا المخلوق كان فى جنوب افريقيا ، فرجحوا ان التطور بدا هناك .

ان الجيولوجيين يقدرون ان اربعة دهور جليدية قد مرت على الارض خلال المليون سنة الاخيرة، عمر رابعها واقصرها هو الاخير الذى تقارب مدته مائة الف سنة ، اي ما يقارب عمر الانسان بشكله الحالي . ويقسم هذا الى ستة عصور ثلجية ومدة آخرها الذى نحن فيه 15.000 سنة .

ان الجزيرة العربية ، ومعها الصحراء الكبرى ، وكل حوض البحر الابيض المتوسط ، الذى كان ارضا تتخللها بحيرات كبيرة ، كان واحة خصبة عمرها الانسان فى العصر الحجري وما قبله . وما كان لاسم العرب وجود حينذاك . وان ترسبات اللغات فى هذا الدور بقيت فى لغة البربر والطوارق كما بقيت فى العربية ، الامر الذى لم يتطرق اليه الاستاذ عبد الحق .

ولا يستبعد ان تكون لغ لغ لغ (لغو الطفل) اصل اللغو واللغة او logy عند اللاتين واليونان ، كما ذهب اليه الاستاذ ، ولكن هذه اللفلفة قد يرجع تاريخها الى نصف مليون سنة . فاين كانت العربية يومذاك ؟ ولماذا ذهب ايضا الى ان الصوت : صو صو صو ـ صوت افراخ الدجاج ؟ اليس ثمة ما هو اقدم من ذلك وهو صفير البلبل ووصوصة العصافير ؟ ان الدجاج قد دخل فى حياة الانسان مستانسا ، بعد وجود العصافير والبلابل وغيرها فى الغاب ، بعشرات الالوف من السنين .

انني اتفق معه ان اصل اللغات السامية والهنداوربية والحامية ايضا واحد ، ولكن لا فى جزيرة العرب كما ذهب اليه ، بل فى حوض البحر المتوسط كله . حدثت موجات من المد والجزر ، والهجرات بسبب العصور الثلجية الستة ، التى صاحبت حياة الانسان ، فتزاوجت اللغات ثم افترقت ثم اندمجت، ثم ابتعدت مرات عديدة ، ولعل الصحراء العربية حفظت بعض الاصول ولكن ما شأن الصحراء الكبري؟ فلماذا تكون العربية هي الأم وليست الاخت وبنت العم ، او ما اشبه ذلك ؟ ولماذا لا يبحث عن هذه المتحجرات اللغوية فى لغة الطوارق والبربر ؟ .

وآخر ما اتحفنا به الاستاذ وضعه لكلمتي الترسيس والتائيل ، كلمتين اقترحهما عنوانا لعلمين، يكاد عبد الحق ان يكون مبتكرهما وواضع اصولهما . فالترسيس هو علم ارجاع الكلمات الى رسها ، اي الى بدايتها ، او الى الاصل الصوتي الذى نشأت عنه بمحاكاته . اما التائيل فهي تقابل كلمة ethimology الاوربية اي علم اصول الكلمات ، او البحث عن كلمة اخرى اتت منها الكلمة ، حتى يتوصل الى المرجع الذى جاءت عنه ، من لغة اخرى غالبا . ان فقهاء اللغة العربية لم يطلعوا على اللغات الاخرى مثل اطلاعنا ، ولم يتح لهم وضع القواعد حسب الاصول العلمية فى البحث والمقارنة . واني لآمل ان يكون الاستاذ عبد الحق فى سبيل وضع معاجم وابحاث عامة فى هذين العلمين ، فيسبق بذلك كل مفكري العرب ، ولربما الغرب ، فى هذا المضمار .

ان فى اسلوب تفكير الاستاذ عبد الحق فاضل وسعة اطلاعه فى اللغة العربية وغيرها من اللغات ، ما يرشحه لعضوية مهمة فى مجامع اللغة العربية، فان فى استطاعته، كما رايت من كتابه، ان يفيد العرب فى تبسيط القواعد ، وغربلة الكلمات والاصطلاحات، خصوصا ونحن فى عصر تقهقر العامية امام الفصحى، نتيجة انتشار التعليم وازالة الامية .